

حريتي في «دروب حريتي»

بقلم محمد سليم ابوسنة

كل شيء . ان الحرية ليست هي حريتي وحدها في كاهل نشاطها . بل انها التقابل العادل بيني وبين الآخرين وكان على ماتيو ان يفقد اهميته . انه من البداية فاقد لايجابيته وغير قادر على المضي في حياته ، لانه منسحب وهارب امام مسؤوليته . وفي الجزء الثاني «وقف التنفيذ» تصور الرواية اعلانا عاما للتعبئة في فرنسا توقعا لقيام الحرب بينما كان تشمبرلين وهتلر يتشاوران في برلين وفجأة نجد ان فرنسا كلها تحاول ان تحصل على حظها الاخير تماما مثل لولا الراقصة التي تعاشر بوريس الذي لم تبلغ سنة العشرين عاما كانت تشبث به في جنون لانه كان حظها الاخير . وهكذا فرنسا كل الناس يرتدون الى الماضي وعندما يأتي دور ماتيو يسأله اخوه : لماذا انت ذاهب الى الحرب وسرعان ما يجيبه : لاني لا أستطيع ان افعل غير ذلك . وهنا نجد الدلالة واضحة على ضياع الحرية انه لم يعد يمارس اختياره لم يحاول حتى ان يعي ما حوله حتى يقرر قبوله او رفضه انه ما زال سجيناً في قفص حريته الخاصة التي ليست بحرية على الاطلاق .

وعندما نجد لولا تفتصب بوريس في حجرتها الحمراء تحت شفق شهواتها الجائعة قبل ان يذهب الى الحرب نجد بوريس نفسه لا يحس بالندم على حياته الندم الذي يعذب ماتيو ان بوريس يقول : ان الحياة لا توصف بالطول ولا بالقصر انها فقط حياة :

اما ماتيو الحر السجين فهو يصيح مبتعداً عن فرنسا كلها ليعلم شعار الحرية التي انتهجها من البداية « ان الحرية هي المنفى وانا محكوم علي بأن اكون حراً » وواضح ان المنفى هو فهمه الذاتي وممارسته هو لحيته الخاصة وفي نهاية هذا الفصل يعلن ان التوقع كان كاذباً وان الحرب لن تقوم سنة ١٩٣٨ وعاد ماتيو الى حياته التي وجد انه كان قد أضاعها وان السلم أو الحرب بالنسبة اليه ما هما الا مرحلتان متشابهتان ما دام لا يفهمهما ولا يشارك في احداهما وبينما كل الناس يعودون الى يومياتهم الخاصة ظل ماتيو في المنفى اي في حريته الخاصة . وبدأ الفصل الثالث « الحزن العميق » منفتحاً على التجربة تماماً يبدأ الفصل الثالث وفرنسا راكعة على الحذاء الألماني والقطارات تتجول كالبرق في سهول فرنسا كلها ويذهب ماتيو الى الاسر الى المنفى الحقيقي هذه المرة ولاول مرة سيجد نفسه امام الحزن العميق الذي حل بفرنسا وحل بالاسرى ويجد نفسه ملزماً بممارسة الحرية الحقيقية في الاسر ان التجربة تعيده الى الحياة « انه ينظر الى الفراغ ويفكر « انا فرنسي » فيجد ذلك طريقاً للمرة الاولى في حياته هذا طريق اننا لم نر فرنسا قط وانما كنا داخلها

ترجم الدكتور سهيل ادريس ثلاثية جان بول سارتر « دروب الحرية » في ثلاثة اجزاء منفصلة هي « سن الرشد » « وقف التنفيذ » « الحزن العميق » . والرواية تحكي الفترة الزمنية الواقعة بين سنة ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، هذه الفترة التي كانت الاحداث فيها تعد نفسها لانفجار الحرب العالمية الثانية . وماتيو هو بطل الرواية الاساسي مدرس تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ذو شخصية ناضجة يحبه تلاميذه ويثق فيه اقرانه وماتيو على علاقة دامت سبع سنوات بمارسيل التي لم يسبق لها ان تزوجت وتقيم مع والدتها ويرقى اليها ماتيو كل مساء ليمارس معها الحب وفجأة تثمر هذه المعاشرة ويعلم ماتيو بان مارسيل حامل وهنا تدخل نواياه وكيانه الفكري والاخلاقي كله في اختيار ويوضع فهمه للحرية في تجربة كاشفة فهو اما ان يلتزم موقفاً يكون مسئولاً فيه عن اعماله بحيث يتحمل في شهامة وكرم نتائج علاقته الاختيارية بالآخر واما ان يفضل الانسحاب الى ابعاده الذاتية ويرى الحرية قضية شخصية وهي ليست الا الارادة المطلقة التي يمارسها شخص ما في الحدود التي يستطيع الحصول عليها دون ان يأخذ نفسه بالتزام مسئولية محددة تجاه الآخر وبهذا الفهم تصبح الحرية سلباً وهروباً وانانية وقد انسحب ماتيو داخل نفسه وآثر حريته الخاصة اي انه ضحى بالحرية الحقيقية ودون ان يأخذ رأي مارسيل حول ما اذا كانت تريد الاحتفاظ بالطفل اخذ يركض في الشوارع باحثاً عن ثلاثة الاف فرنك يجهن بها مارسيل لقد كان يرفض الزواج ومن اجل رغبته هو ضحى بحرية مارسيل وامام التهديد المفاجيء بسفر طبيب عمليات الاجهاض الماهر والذي لا يقل اجره عن ثلاثة الاف فرنك . وامام اعراض ماتيو التام عن التزام موقف كريم وعادل في قضيته لجأ الى احسن التصرفات . لقد سرق مالا من عشيقته تلميذه وحصل على الفرنكات وعندما ذهب الى مارسيل كان دانيال قد ايقظ فيها كرامتها وقرر ان يقوم هو بدلا من ماتيو بالتضحية العادلة . وكانت مارسيل تعتقد في صواب ماتيو انه لن يخدعها ولكن دانيال ومعه الاحداث افلج في اقتلاع هذه الثقة من قلب مارسيل وبدون تروكاف تقدم دانيال كقربان جميل ليحمل الغداء للطفل وقذف بالفرنكات في وجه ماتيو وامام لولا صاحبة المال وعشيقة بوريس تلميذ ماتيو الراقصة التي تقف بعد الاربعين من عمرها . وهنا وبعد ان مرت مارسيل من تحت انف ماتيو احس انه قد اضاع كل شيء خاصة وانه فشل في خلق انسجام مع ايفيش شقيقة تلميذ بوريس واحس ماتيو انه عندما آثر ان يكون حراً وبلا مسئولية قد اضاع حريته فعلاً وخسر

فرنسا على قفاها لم تكن لديه الرغبة ليكون حرا اي يلتزم موقفا حقيقيا امام كارثة بلاده لانه قد اضاع التزامه في التجربة الاولى .

ان دانيال يتبادل مع ماتيو الموقف فكما اضاع ماتيو التزامه امام مارسيل اضاع دانيال التزامه امام فرنسا . كان دانيال يمشي خافض العينين متلذذا وكان يسمع السيارات تنسل بقربه في الشارع ويفكر « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس ولا بد ان يكون ماتيو اسيرا والارجح ان يكون برونيه قد قتل فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا لقد استعدت نفسي لها وعندما سال فيليب دانيال : هل انت جندي سمع دانيال السؤال بغير رضى :

ان حربهم لا تهمني : وهكذا تجد ان الشهم الذي تحمل عن ماتيو تبعته يفقد امام فرنسا مسؤوليته ، أما ماتيو فانه في النهاية يصطحب زملاءه ويذهب للقتال فهو يحاول في هذه المرة ان ينقذ ماضيه وحريته ، انه هذه المرة امام التزام حقيقي امام حريته، امام خلاصه : واستمر ماتيو يطلق النار وكان ما يزال يطلق حين انهيار السقف عليه وتلقى عارضة على راسه فترك بندقيته وسقط وفكر في جنون خمس عشرة دقيقة واقرب من الافريز واخذ يطلق واقفا وكان ذلك نارا هائلا ، كانت كل طلقة تثار له من وسواس قديم . طلقة على لولا التي لم اجرؤ على سرقتها وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها . . . ونظر الى ساعته اربع عشرة دقيقة وثلاثين ثانية لم يبق الا مهلة نصف دقيقة ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميل واطلق مرة اخرى واطلق وكان نقيا وكان قديرا وكان حرا . وبهذه الطلقات ينتهي دور ماتيو في الرواية بعد ان استعاد حريته التي فقدها من اجل مارسيل ومن خلال ماتيو نحس قضية سارتر الخالدة : ان الحرية هي الالتزام وفق اختيار وان المعنى المربى للحرية الذي يفهمه البعض ويفسرونه بأنه الانطلاق الطائش للارادة هذا المعنى ليس الا المنفى نفسه كما قال ماتيو بينما التعبير عن ارادة الفرد من خلال ارادة الجماعة هو المعنى الجدير بكلمة الحرية وهو ما استطاع ماتيو ان يحققه وهو في المنفى الحقيقي . وفي القسم الثاني من الجزء الثالث تتجاوز الاحداث البطل الرئيسي في دروب الحرية وتحصول القضية من قضية الاختيار والالتزام الى قضية العسر فالحرية تتولى تخطيط المصير للأسرى ولا يتمكن عامل المطبعة الذي حاول برونيه ان يشركه في منظمته لا يستطيع هذا العامل ان يعود الى ماضيه :

انه يتسهم في الفراغ ويقول : لولا هذه الحرب لكننا سعيدين كنت سأخذ لنفسي ركني الصغير . وقرر العامل ان يعود الى الماضي وقفز من القطار واطلق الالمان ثلاث طلقات فتداعى العامل باسترخاء الى الورا وسقط وابتعد القطار .

ان الحرية في النهاية هي التي تتولى اعدام الحرية . حرية عامل المطبعة الذي اوقفت الرصاصات الثلاث تدفق ماضيه في مستقبله . وكان الجسر هناك على بعد عشرين خطوة وقد أصبح حرا « سأخذ لنفسي زاويتي الصغيرة » ويتابع الاسرى رحلتهم بعد ذلك في حماية البنادق المعادية للحرية .

لقد كانت ضغط الهواء وجاذبية الارض والفضاء والرواية واليقين الهاديء بأن العالم قد خلق للانسان وقد كان طبيعيا جدا ان يكون فرنسيه فتلك هي ابسط الوسائل وأوفرها ليحس نفسه عالميا ، لم يكن ثمة شيء للشرح فقد كان على الاخرين ، على الالمان والانجليز ، ان يشرحوا سوء حظهم أو غلظتهم بأن يكونوا رجالا تماما . لقد انقلبت فرنسا على قفاها ونحن نراها ، نرى آلة كبيرة معطلة ونفكر ما هذا (هذا) حادث ارضي حادث تاريخي اننا ما نزال فرنسيين ولكن هذا ليس طبيعيا بعد فقد كان حادث واحد كافيا يجعلنا نفهم اننا كنا عارضين « ولاول مرة يحس ماتيو بأنه داخل قوميته وان الحس القومي يسيطر عليه عندما انقلبت فرنسا على قفاها وعندما كان زملاؤه في الاسر يحرصون على خلاصهم الشخصي كان ماتيو ينظر اليهم في ذهول: كلهم كانوا يفرون شوارتز بغير جلده ونبير تشبث بالنوم وبنيت غاضب وبيارنيه بريء اما لوبيرون فقد اختبأ في اللحظة يأكل ويسد كل منافذه بالطعام وكان لونجان قد ترك العصر كان كل واحد منهم قد كور لنفسه بسرعة الوضع الذي يمكنه من ان يعيش وانتصب ماتيو فجأة :

« انكم تثيرون اشمئزازي » وبينما اضاع ماتيو حريته الاولى لانه فر من مسؤوليته واضاع التزامه باختياره ، كذلك دانيال الذي كان حاسما قبل الاختيار الحقيقي نجده في الفصل الاخير هو نفسه دانيال المنحل الذي يبحث عن فرائسه على شواطئ الانهار ليذهب بها الى ظلام حجراته ليمارس الائم . ان دانيال. قد اضاع حريته لانه التزم بمسؤولية ليس هو صاحبها وعندما انقلبت

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

ل.ل	ل.ل	ل.ل	ل.ل
١٥٠	١٥٠	١٥٠	١٥٠
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	»	»
السنة الرابعة	١٩٥٦	»	»
السنة الخامسة	١٩٥٧	»	»
السنة السادسة	١٩٥٨	»	»
السنة السابعة	١٩٥٩	»	»
السنة الثامنة	١٩٦٠	»	»
السنة التاسعة	١٩٦١	»	»